النصارى في مكة

قبيل الهجرة

معلومات وملاحظات

بقلم الاب لامنس اليسوعي

مزاعم ولهوسن ان الدين الذي احدث اثرًا فعالًا في الإسلام الاول انما هو الدين المسيحي لا اليهودي[1] . « وان النسّاك النصارى وضعوا الجرثومة الروحانية في الإسلام. وان الحميرة لا تأتي من اسرائيل. انما قام اسرائيل ، على الاكثر ، بتقديم الطحين الذي زيد فيما بعد.»[2]

وقد قُيّض لنا ان نردّ على هذا الزعم في بحث طويل[3] . فلا نعرض اليوم الّا لسرد البراهين التي ادلى بها ولهوسن دعمًا لنظريته ، على ذاك الاسلوب الآخذ من المطالعين ، حتى اليوم ، ما يبدو عليه من طمأنينة وهدوء. ولنقل ، منذ الآن ، ما قال ليسنكي من ان تلك البراهين « لا تقوى على نقد علمي.»[4]

من الحقّ اننا نرى محمدًا ، في مكة ، يميل الى الروم في حروبهم مع الفرس[5] . ولكن اي غرابة في ذلك ؟ أوَلَم يكن الفرس من المشركين في نظر المبشّر بوحدانية الله ؟ بيد ان ولهوسن يرى غريبًا ان يُستنتج ، من هذه الحادثة

---

١) Wellhausen, *Reste arabischen Heidentums*², 234

٢) *Ibid.*, 242

٣) راجع مقالنا *Une adaptation arabe du nom chrétien de Critique*, dans *Recherches de science religieuse*, VII, 161-184

٤) Leszynsky, *Die Juden in Arabien zur Zeit Mohammeds*. ولو اهتمّ المؤلف بدرس الحديث درسًا مرتّبًا لأفاد كثيرًا.

٥) السورة ٣٠ [الروم] ١ و ٢ . . . : « الم غُلبت الروم في ادنى الارض ، وهم من بعد غلَبهم سيغلبون . . . »

٦) وكذلك ونسنك (Wensinck *Der Islam*, II, 286... فانه يرى الرأي نفسه تقريبًا .

وحدها ، تميزٌ واضح صريح في ميول النبي الموحدة ، ومن ثمَّ ان يُحكَم بان هذه الميول تصرفه الى اسرائيل عن ارباب النصرانية .

اما الحقيقة فان هـذه الميول تشمل اهل « الكتاب » جميعاً ، اي اليهود والنصارى ، وقد كان النبي قبل الهجرة ، يرى انه يعمل معهم في اقرار وحدانية الاله ، كلٌّ في محيطه الخاص . واذاً فليس من عجب ان يظهر ميله الى الروم ، « خلافاً لموقف اليهود الواضح »[1] . ولم يكن له ما كان لليهود من احقاد على الامبراطورية الرومية ، تراكمت مدة السنين المتطاولة ، فولدت ذاك البغض المتأصل . بل انه كان يرى ، مخلصاً ، ان على « الكتابيين » ان يتفقوا في الشؤون والمسائل المهمة ، كما كان يرى انه متفق معهم في ذلك . فكلّ ما في « سورة الروم » انما هو ميلٌ الى جماعة من ارباب التوحيد ليس غير[2] . هذا قبل الهجرة . اما بعدها فان موقف يهود المدينة يدفع النبي الى كثير من الايضاح والتمييز .

ويقول ولهوسن : « لا يمكن ، بأيّ حال ، ان نتحقق النفحة اليهودية في تلك الآيات التي يضع فيها القرآن يسوع فوق انبياء العهد القديم . »[3]

ليس من شكّ في ان القرآن يجعل من المسيح شخصيةً لطيفة جذّابة ، بل انه يجعلها العطف الشخصيات في تلك المجموعة العجيبة من الانبياء[4] . ولكنّ الثابت ايضاً ان النبي الذي احدث الاثر العميق في عقلية محمد نجذبه الى السير على طريقه ، لم يكن عيسى بن مريم . انما هو ابراهيم ، انما هو موسى . هذان الاسمان العظيمان في تاريخ اسرائيل ، يعجب بهما نبي العرب ، ويفهمهما حقّ الفهم ، ويتوق الى التشبه بهما[5] . يحدّق اليهما ، ويتأملهما ، فلا يحتاج الى تحفظ في اعجابه

---

١) الكلام لولهوسن . وقد كان النبي جديراً بان يستغرب هذا الموقف ، لو عرفه .

٢) ولقد كان هذا الميل حقيقاً بان يوجّه الى اليهود ، لو كانوا في حرب مع المشركين .

٣) Wellhausen, *Reste*, 236

٤) وهناك شخصية أخرى من شخصيات العهد الجديد يظهر ان الاسلام الاول يغار فيها ، هي شخصية يحيى ، اي يوحنا المعمدان ، الذي ظلّ « محصوراً » . راجع كتابنا : *Fâtima et les filles de mahomet*, 32

٥) راجع *Adaptation*, 170 . واطلب في الثاني ، ٢٧ : سورة المعراج . وفيها يظهر

بها ، ولا الى احتجاج على شيء مما يخصها.[١]

ونحن ، اذا استثنينا ذكر العجائب التي قام بها المسيح — والعجائب من دلائل الوحي في نظر النبي — لا نرى وجهاً للشبه بين يسوع القرآن ويسوع الاناجيل . في القرآن لا يظهر عيسى الّا واحداً من انبياء اليهود ، لا همّ له الّا التضييق من سعة رسالته ، والتخفيف من مجد ولادته الباهر ، وبهاء عجائبه الساطعة . ولا يمكن ان تكون هذه الشخصية الهزيلة الناحلة ، المضطربة حتى في تحديد نفسها ، مستوحاةً من المصادر المسيحية[٢] . ولا يُعترض علينا بما ورد في القرآن من نعوت نصرانية يُنعت بها المسيح ، « كروح الله » و« الكلمة ». فانه لا وجه للشبه بين مدلول هذه الالفاظ في القرآن ، ومدلولها في نصّ يوحنا الذي استُعيرت منه . ولهذا فاننا لا نتراجع عن القول إنه « وان استعمل التعبير النصراني ، فلا يفتأ يفكر تفكيراً يهودياً .»[٣]

اما ذاك العطف الصريح على المسيح وعلى المسيحيين ، البادي اكثره[٤] في السور المدنية ، فقد يكون اداةً من ادوات الجدل دُفع النبي اليها في عراكه ، بعد الهجرة ، مع يهود الحجاز[٥] ، فشاء ان يبرّئ نفسه عن اسرائيل ، بعد ان اكثر من الميل اليه ، في ما سبق .

ولا يبالغ ليسنكي[٦] في شيء عند ما يقول ان اسم يسوع — بصورته

ابرهيم وموسى فوق يسوع بدرجات . ويدعو ابرهيم محمداً « ابيه ». اما سائر الانبياء فيحدّونه « اخاهم » .

١) كما قد نشعر بموقفه تجاه المسيح ، مما جعل هنري دي بورنيه يقول عن لسانه :

Je mourrai mieux que toi ! Ta mort fut trop sublime,
O Jésus !... H. de Bornier, *Mahomet*, II, sc. 6.

٢) راجع *Adaptation*, 178

٣) *Adaptation*, 176-177 . وكذلك البطريرك اليعقوبي ميخائيل يقول في تاريخه ٢ : ٤٠٢ ، ان محمداً تأثر اولاً باليهودية .

٤) بل كله اذا صحّ ان الآية في السورة ٢٢ [الحج] ١٧ مدنية . اطلب « نصارى » في فهارس القرآن .

٥) درسنا هذا الوقف في مقال خاصّ عنوانه *Les Juifs à la Mecque à la veille de l'hégire.*

٦) *Op. cit.*, 40

الغريبة « عيسى »[1] - لا يظهر مرةً واحدة في السور المكيّة القديمة ، وقد احتلّتها كلّها تقريباً ذكريات ابرهيم وموسى وقصصها . بل اننا لا نرى ذكرًا لاحد اشخاص العهد الجديد الّا في السورة التاسعة عشرة . ففيها تبدو ، لأول مرة ، اسماء مريم ، وزكرياء ، ويحيى ، وعيسى . اما تاريخ هذه السورة فيردّه ارباب التفسير الاسلامي الى الهجرة الحبشيّة . وقد يكون النبي عرف هذه الاخبار باختلافه الى مستوطني مكة من اولئك اليهود - النصارى الحبشي الأصل ، وطني « الاحابيش » المشهورين[2] ، عبيدًا كانوا او عمّالًا ، سماسرةً او تجارًا ؛ ولقد كانوا من الكثرة بحيث انتشروا في احياء مكة جميعها انتشارهم في سوقها . وكذلك القول عن « الانجيل » فاننا لا نرى ذكرًا له الّا في السور المدنية[3] ، بينما نرى الذكر السابق للتوراة والزبور[4] . وان لهذه الملاحظات اهميّتها ، اذا ما اردنا قدر مظاهر العطف والميل الى النصرانية البارزة في القرآن ، وبالتالي قدر المبالغة بل التخيّل في مزاعم ولهوسن . ولهذا فاننا لا نرى في هذه المظاهر رغبةً من النبي في الارتفاع الى مثلٍ اعلى يفوق مثل انبياء العهد العتيق . بل ان هذا المظهر المسيحي في القرآن ، الظاهر متأخرًا عن زمن الهجرة ، لا نراه يرمي الّا الى الردّ على اليهود الذين خيّبوا آمال النبي . أولم يستحقّوا ذلك « بكفرهم وقولهم على مريم بهتانًا عظيماً »[5] .

ويستند ولهوسن[6] ، فوق هذا ، الى اسم « الصابئ » الذي تستعمله « السيرة »

---

١) ومن الصعب ان ندلّ على أصل الاسم في النصوص المسيحية . راجع .I. Horovitz *Koranische Untersuchungen*, 1926, p. 128-129.

٢) راجع بحثنا في « الاحابيش » في المجلد السابق من « المشرق » . ولقد كان في جيوش النبي نفسه عدد من المأجورة السودان (ابن سعد : الطبقات ٢ : ٩٠) وقابل بما ورد في الجاحظ : الحيوان ٣ : ١٢ ، وانتبه للنقطة : « سودانك ! »

٣) ولا شك في ان السورتين ٤٨ [الفتح] و٥٧ [الحديد] متأخرتان عن الهجرة .

٤) لتراجع هذه الالفاظ : الانجيل ، التوراة ، الزبور ، في فهارس القرآن .

٥) القرآن ٤ [النساء] ١٥٥ : ومن الصعب ان لا نرى في هذه الآية اشارة جدلية ضدّ اليهود .

٦) *Reste*, 236

وكتب « الصحيح » للدلالة على المسلمين الأوّلين[١] . وهو يرى فيه اشارةً الى المندائيين وغيرهم من ارباب النِحل المعمدانية في آسية الغربية. اما نحن فنرى في استعمال الصابئ ، والصابئة ، والصابئين ، اسلوباً طالما استعمله « صوّاغ الحديث »[٢] سعياً وراء « النوادر » و « الغريب » ، وغايتهم اظهار مصنوعاتهم بمظهر القِدَم ، وهو كافٍ بزعمهم لتصحيحها وتأييد نسبتها التاريخية. وان هذا الاسلوب في صنع الاحاديث أصبح من الشهرة اليوم بما يغنينا من الإطالة فيه[٣]. ولا يخفى ان جمْع كتب « المسند » و « السُنَن » ، بعد ان اطالوا ما شاؤوا في استغلال لفظة « حنيف » و « حنفاء » ، رأوا ان يستغلّوا كذلك لفظة قرآنية اخرى ، فعلقوا « بالصابئين » يفسّرونها ، ويملّون تفاسيرهم التعاليل المتشعّبة . ونحن انما يهمّنا من كل ذلك الاشارة الى ان عملهم اقرب الى التفسير منه الى التاريخ ، وغايتهم ان يشرحوا بالحوادث ، والاخبار ، والاوصاف الواضحة ، كل ما يرونه من تلميحات غامضة ، ورموز ضمنية في بعض الآيات الموجزة ، فيبدّدون الإبهام ويوضحون امام القرّاء شيئاً من غموض بعض السور[٤]. وهذه لفظة « الركوسية »[٥]،

١) ابن الاثير : النهاية ٢ : ٣٤٨ . اما ذاك البيت الوارد في ترجمة لبيد (الاغاني ١٥ : ١٢٨) وفيه :

وجئت بدين الصابئين تشوبه بالواح نجد ، بعد عهدك من عهد !

فالغرض منه ، ومن الحادثة كلها ، التدليل على قِدم ارتداد لبيد الى الاسلام .

٢) ابن الاثير : النهاية ٣ : ٥ . وقد يكون اللفظ منقولاً عن ابي هُريرة ، وهو من ارباب الحديث المكثرين المتّهمين (راجع كتابنا عن فاطمة ، ص ٥٥)

٣) راجع *Fāṭima*. 27 . وتجد في صحيح مُسلم ٣ : ٥٤٠ – ٥٤٢ مثلاً يكثر فيه « الغريب » . وغيره في *Califat de Yazid I*, 345 . ويذكر ابن الاثير (النهاية ٣ : ١٤٥) نوعاً من الاحاديث « مما يؤمن به وبامثاله ولا يُدخل في كيفيته . »

٤) راجع ما قلناه في مقدمة « فاطمة » . وقابل بما في الذهبي : ميزان الاعتدال ٢ : ٢٢٦ ، ٢٢٤ . من ذكر تأليف اخبار وحوادث لتوضيح بعض الآيات الغامضة ، وراجع كذلك في كتب « الصحيح » كل المقاطع المبدوءة : « باب في قوله تعالى . . . »

٥) راجع عدة مقالات عن الركوسية للآباء انستاس الكرملي ، وشيخو ، ولامنس ظهرت في المشرق ٦ [١٩٠٣] ٥٧٤ ، ٧٧٧ ، ٩٢٨ ؛ ٨ [١٩٠٥] ٥٠٤ ؛ ١٠ [١٩٠٧] ١١٣٠ ؛ ١١ [١٩٠٨] ٤٨٠ ؛ واطلب : اسد الغابة ٣ : ٢٩٢ ، وقد ورد على الهامش : « الركوسية دين بين النصارى والصابئين ، كذا في النهاية . »

اسم نحلة نصرانية شرقية ، لا تظهر الّا في حديث عديّ بن حاتم. فلو وردت في القرآن ، لما تأخر ارباب الحديث من تأليف إضبارة خاصّة تجمع كثيرًا من الاقوال والاخبار[1] تصطبغ بطلاء تاريخي شفّاف وترمي الى توضيح اللفظة والتبسّط في شرح ما تدلّ عليه . واذًا ، فلم يكن بدّ من ان يلفت لفظ « الصابئين » نظرهم . وهكذا كان . على انهم بدل ان يفكّروا بالمندائيين في بابل — ولا يظهر ان القرآن عرفهم قبل الهجرة[2] ، لانه لا يذكر الصابئين الّا في السور المدنية — اخذوا يقابلون بين الآيات الثلاث التي تذكر الصابئين في القرآن[3] . وهي تميّز بينهم وبين اليهود والنصارى . على انها تورد ذكرهم كأنهم من الموحّدين يؤمنون بالله وباليوم الآخر ، موافقين معتقدات الاسلام الأوّل . فلم يكن اذًا ما يمنع المفسّرين ان يحوّلوا لفظة « الصابئين » الى نعت يُجرون استعماله في عهد النبي ، للدلالة على اول الدائنين بالاسلام.

ولم ينتبه ولهوسن لهذا الأمر ، على رغم ما عُرف من خطأ سپرنگر ووهمه في شرح لفظة « حنيف »[4] . ولقد كان جديرًا بهذا الخطأ المشهور ان ينبّه ولهوسن الى تجنّب الوقوع في مثله . كما كان جديرًا بولهوسن الّا ينسى ان عادة الوضوء لا ترقى الى ما قبل العهد المدني ، وانها مأخوذة عن يهود يثرب[5] ، وهو المقرّ « بانه لا يمكن الدلالة على وجود الوضوء عن المندائيين »[6] . واذًا فاذا يبقى من تلك القرابة المزعومة بين المندائيين ، و« صابئي » القرآن ، والمسلمين الأولين ؟

واننا لا نقف طويلًا لدى لفظة « حنيف » ، وهي آخر ما يعلق به ولهوسن

---

١) كما فعلوا بشأن الجملة الخاصة بالمسك وان « فيه شفاء للناس » (القرآن ١٦ [النحل] ٧١) . راجع كتابنا *Ṭâif*, p. 40

٢) بل قد لا يكون عرفهم بعدها ، لانه ليس ما يثبت ان المقصود بالصابئين المندائيين ، لا غيرهم من ارباب اية نحلة شرقية .

٣) القرآن ٢ [البقرة] ٦٢ ؛ ٥ [المائدة] ٧٣ ؛ وهي مراجعة للآية السابعة : ٢٢ [الحج] ١٧ ، والآية مدنية . راجع : Nöldeke - Schwally , *Geschichte des Qorans*, 214

٤) *Reste*, 238

٥) اسد الغابة ٦ : ٢٢٣ ، ٢٢٤

٦) *Reste*, 238

من الاسانيد ، ظانًا انه يأتي بشيء جديد في استغلال قيمتها ، بقوله انها تعني « النساك والزهّاد من النصارى ». وليس في هذا الزعم ما يثبت على النقد ، وان يكن المؤلّف يسنده الى ترجمات جرينة لبعض النصوص القديمة . ولقد كان لنا ، في ما مضى[1] ، ان اوضحنا رأينا في وجود « الحنيفية » التاريخي ، وبيّنّا ان هذه الفئة من اجرأ مخترعات ارباب الحديث وجامعي حوادث السيرة ، محاولين سدّ الثلم الواهية في التاريخ الديني قبل الإسلام ، وايجاد انظمة ورعيّة لدين ابرهيم القديم ، ومن ثمّ ايجاد سابقين مؤمنين للدين الاسلامي . وقد كان لهذه اللفظة ان صادفت حظًّا عجيباً بفضل المفسّرين الغُيُر . اما في القرآن فلا نراها الّا نعتاً بسيطاً تفيد معنى المؤمن الصادق ، بل معنى الموحّد على الغالب . ولهذا نراها تردف كثيرًا لفظة « مسلم » . ولا نرى انها دلّت ، مرّة واحدة ، على نحلة او فئة خاصة من البشر . قد يوافقنا المطالع على هذا الرأي ، وقد يخالف . الّا انه لا يسعه الّا القول معنا انّ كل الامثلة التي يوردها ولهوسن[2] قد يحلّ فيها معنى « المشرك » محلّ المعنى الذي يفرضه هو ، دون ان يتأثّر النصّ الاجمالي ، بل قد يكون معنى « الشرك » اوفق لهذه النصوص . ولا يبعد ان تكون لفظة « حنيف »، في القرآن ، انحرفت عن معناها الاصلي[3] ، مع الاحتفاظ بشيء من ذاك المعنى قد يبدو لمن يألف نصوص القرآن ألفةً نقديّة . ولهذا ، لا اراني مغالياً اذا قلت ان معنى الآية التي كثيرًا ما نراها مرددةً على هذا الشكل او ما يقرب منه : « كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين »[4] لا يعدو ان يترجم بما يلي : كان موحّدًا مسلماً ، ولم يكن له

---

١) راجع ابحاثنا : *Mahomet fut-il sincère ?* p. 14 ; *La Chronologie de la Sîra*, p. 229 ; *Califat de Yazid 1er* ; *Adaptation*.

٢) *Reste*, 236-240 . ويثبت المؤلّف ان لفظتي « راهب » و« حنيف » مترادفتان ، ولا يستند له الّا نصّ واحد يُسمّى فيه « راهبًا » ابو عامر المدني . على ان الحديث يطلق اللفظة ، دون تمييز ، على افراد من اليهود ، بل قد يطلقها على بعض المشركين ، كما سنرى . راجع ، بشأن الترهّب عند الحنيفية ، ابن الاثير : النهاية ٣ : ١٨-١٩

٣) Nöldeke, *Neue Beitr. zur semit. Sprachwissenschaft*, 23 etc...

٤) اطلب القرآن ٣ [البقرة] ١٢٦ ؛ ٣ [آل عمران] ٦٠ ، ٨٢ ؛ ٤ [النساء] ١٢٤ ؛

علاقة بالمشركين . والّا لما بقي من معنى للتعبير « وما كان . . . » سوى ان يكون مراجعة نافلة ، وليس كذلك.

وهناك مستند اخير يظهر اضعف مما تقدم ذكره . وهو الدليل المستنتج من ذكر اليوم الآخر [1] . ولا نعرف لماذا يودّون ان يأخذ القرآن هذه الفكرة عن النصارى ، لا عن اليهود !

ثم اننا لا نرى دليلًا يجعل للاسلام الناشيء وجهةً زهديّةً او نسكيّة ؛ كما ادعى ولهوسن [2] ، وكما وافق ، او كاد ، گولدسيهر [3] . وقد تكون تلك العبادات الليلية الطويلة ، التي تشيد بذكرها السور المكيّة ، صدىً لعبادات النسّاك الشرقيين . وهي ، كيف ما كانت الحال ، لا تعدو التوسيعات الخطابية في مثالٍ اعلى للحياة الدينية تصوّره النبي ، ولكنه لم يعمل [4] ، ولا صحابته ، على تحقيقه في القريب العاجل [5] . بل ان الصلاة ، وطرق القيام بها ، لم تقرَّر نهائيًا الّا في المدينة . اما قبل هذا العهد فقد كانت عملًا موصىً به ، ولكنه كان متروكاً لحرّية الفرد يقوم به حيث شاء ، ومتى شاء . ونعم القول قول كايتاني « انه في اثناء العهد المكي لم يكن على المسلم ، اذا ما

---

٦ [الانعام] ٧٩ ، ١٦٢ ؛ ١٠ [يونس] ١٠٥ ؛ ١٦ [النحل] ١٢١ ، ١٢٤ ؛ ٣٠ [الروم] ٢٩ . ويجدر بالذكر ان لفظة «حنيف» تظهر خاصة في الآيات المدنية.

١) وقد اخذ هذا المستند ونسنك ايضاً في كتابه المذكور آنفاً.

٢) *Reste*, 241

٣) *Vorlesungen über den Islam*, 139 . على ان المؤلّف يتراجع احياناً امام النتائج المتضمّنة في « دروسه المحمّدية ».

٤) وقد كان النبي ميّالًا الى النوم بشهادة ارباب الحديث : الدارمي : المسند (الطبعة الحجرية) ٥ ؛ ابن حنبل : المسند ١ : ٢٤٥ ، ٢٤٣ ؛ ابن الاثير : النهاية ٣ : ١٨٧ ؛ النسائي : السُنن ١ : ١١١ ، ١٦٨ ، ٢٨٠-٢٨١ ؛ الذهبي : ميزان الاعتدال ٣ : ٢١٥ ؛ البخاري : الصحيح (طبعة الاستانة) ١ : ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١٧١ ؛ ٧ : ١٤٨

٥) قابل ، بشأن احد الاحاديث في الموضوع ، قول الذهبي في ميزان الاعتدال ١ : ١٦٠ : « حديث حسن غريب ولا يصحّ . » واذا ما راجع الدارس كتاب الصلاة في صحيح البخاري ٣ : ٤١ ، تصوّر الجماعة الاسلامية الاولى لا تختلف في شيء عن جماعات الرهبان ، تقضي لياليها في الصلوات والتراتيل . . . على ان ابا داود في السنن ١ : ١٣٠ يقرّ بان هذه الفرائض قد نُسخت . وهي لا تعدو وصف المثال الاعلى كما في تفسير الطبري ٢٩ : ٦٨ ، ١٢١

استندنا الى نصّ القرآن وحده ، ألّا ان يؤمن بالله ، ويكفر بعبادة الاوثان . وما عدا هذا الايمان الفسيح ، لا نراه مقيّدًا بشيء من الفرائض الدقيقة [1] ، بل لـه ملء الحرية في اعماله . » [2] واذًا فان من يتصوّر الجماعة الاسلامية الأولى ساهرةً ليـاليها الطوال بالصلوات والتهجد حول النبي ، يخطىء خطأً تاريخيًا بانسحابه على إثر ارباب الحديث [3] ، ناسيًا ان مؤلفي السيرة وكتب الطبقات كانوا يرمون ، في تلك الاوصاف الجميلة للمؤمنين الأوّلين ، الى تجسيم المواعظ التقوية الواردة في السور المكيّة ، وتحقيقها بالنوادر والحوادث الواقعية . أوَ لم يُقرّ ولهوسن نفسه « بان القسم المكّي من السيرة قد غزته الاسطورة من جميع نواحيه » ؟ [4]

١

هذا . ولا نرى بدًّا ، في سبيل التمهيد لايضاح شيء من هذه المشاكل المعقّدة ، من ان ندرس حالة النصارى وعددهم في عاصمة القرشيين ، قُبيل الهجرة . وان لنا في تطوّرات فكرة النبي بشأن المبادئ والعقائد النصرانية ، وفي اطّلاعه المتأخر على معرفة المهمّ منها ، لدليلًا عـلى ان النصارى لم يكونوا في مكة جماعات مؤلّفة ، عندما رأى النبي ان يدعو قومه الى عبادة الاله الواحد .

بيدَ ان في تاريخ اليعقوبي نصًّا قد يوهم بعكس ما نذهب اليه . وهو قوله : « اما مَن تنصّر من احياء العرب فقومٌ من قريش . . . » [5] ولكن اليعقوبي لا يذكر من هؤلاء « القوم » الّا رجلين اثنين دانا بدين الانجيل ، واحدهما وَرَقة ابن عم خديجة ، ممن اكثر ارباب السيرة والتاريخ من ذكره على اضطرابهم في تحديد شخصيته [6] . وليس الاثنان بعدد خطير . ولا عجب فـان القرشيين

١) لا بالصوم ، ولا بالصلوات الخامسة *Muir*, III, 67 ٢٤

٣) راجع اسد الغابة ٣ : ١٤٨ ، ١٦٣ ، ٢٠٢

٤) *Die ehem. arabische Religion*, Hannover, 1913, p. 31 . وهو جزء مأخوذ من نقد المؤلف لكتابنا في « فاطمة »

٥) اليعقوبي : تاريخه (طبعة Houtsma) ١ : ٢٩٨ . وهذا تاريخ مجموعة مفيدة لدرس ادّعاءات العلويين ونظرياتهم ، وان يكن خلوًا من النقد التاريخي .

٦) ابن هشام : السيرة ١٤٤ ، وهو يلقّبه « بالقسّ » : راجع ابن البلاذري : انساب

الخُلَّص ، تجّار مكة الوافري الحذر، القليلي الايمان، كانوا ابعد من ان يؤخذوا بالدين النصراني . فكانوا يكتفون ، بنا « وجدوا عليه اباءهم » — على قول القرآن [1] — من دين بلدي تقليدي قليل المؤنة والتكاليف . ولهذا ظلّ عدد النصارى ضئيلاً بينهم . من الحقّ ان جمّاع اخبار الصحابة يذكرون رجلاً باسم « شمعون »[2]، وهو اسم نصراني ان لم يكن يهودياً — وليس من عادة العرب ، قبل الهجرة ، ان يتسموا باسماء العهد العتيق [3] — ولكن قرشيته ليست بثابتة [4] . ولعلّه من افراد تلك الجوالي الاجنبية الطارئة على مكة في سبيل العمل والكسب . وقد رأينا بينها كثيراً من النصارى ، ولا سيما في جالية الاحابيش العظيمة الخطر .

ولا يخفى ان المدينة القُرشية تبعت ، على مدة ما ، ولاية اليمن الحبشية . هذا ارصن ما يُمكن ان يستنتج من حادثة « الفيل » التي شهرها القرآن . على اننا نجهل كم دام ذاك الاحتلال الحبشي في ارض تهامة ، وان نكن على شبه ثقة من انه أثّر في مصلحة النصرانيـة ، دين المحتلين . وهو أمر ادركه مؤلفو السيرة ، بل بالغوا في ادراكه، فجعلوا رجال ابرهة كلهم من المتدفقين في نشر الدين المسيحي حتى انهم حاولوا هدم الكعبة . ولم يضمحلّ اثر النصرانية

قُريش (مخطوطة باريس) ص ٦٤ . وفي جامع الفرائد (مخطوطة برلين رقم ١٢٣٠) ٢ : ١٢٤ قفا ، ذكر لمناقب ورقة . وسنعود الى درس هذه الشخصية الغريبة .

١) القرآن ٥ [المائدة] ١٠٣ ؛ ٧ [الاعراف] ٢٧ ؛ ٢١ [الانبياء] ٥٤ : ٣١ [لقمان] ٢٠ ؛ ٤٣ [الزخرف] ٢١ و٢٢ . . .

٢) اسد الغابة ٣ : ٢٦٠ ، وفيه يقال إنه ازدي

٣) راجع Fatima ؛ ابو تمام : الحماسة (طبعة مصر) ١ : ١٨٩

٤) اطلب اسد الغابة ٣ : ٤٠ . ولا يخفى ان جميع المتسمّين بيوسف او يونس من صحابة ، (اسد الغابة ٥ : ١٢٣ . . .) عرضة لكثير من الشك في وجودهم . وكذلك القول عن المتسمّين بابراهيم (اسد الغابة ١ : ٤٠٠ . . .) فهم امّا من موالي المدينة ، وهم من المشكوك في وجودهم ، ان لم نقل من المخترعين المزيّفين . وهناك ، قبل الهجرة ، ذكر رجل من المدينة اسمه ابو سلمان كانوا يهودياً او نصرانياً دون شك ؛ الاغاني ٢٤ : ٢٤ . وانظر الى اسد الغابة فترى فيه (٣ : ٣٥٠) عدداً من الصحابة باسم سلمان ، وكلهم مخترعون او محوّرة اسماؤهم ، وكذلك القول عن المسمّين باسماعيل (اسد الغابة ١ : ٧٩-٨٠) ويحيى . . . الخ

نجلاء الحبش عن مكة . فظلّ فيها عدد من العبيد ، والعتال ، والتجار [1] ؛ فضلًا عن « الاحابيش ».

وقد استفادت السيرة من هذا الامر الواقع ما وفّر لها حادثةً طريفة تزيّن بها طفولية محمّد ، على فقرها بالحوادث . وان النقد لا يكاد يتصوّر ما قام به هؤلاء المؤلّفون من جهود ، وما كشفوا عنه من قوّة خيال ، في محاولاتهم لفت انظار اقارب محمد اليه طفلًا وصبيًّا . ولا يخفى ان النبي قضى ايام صباه لا ينتبه لـه احد من اهله بني هاشم ، وهم انفسهم لم يكونوا ، قبل الهجرة ، بالمحل ذي الخطر في المجتمع المكّي . ولنا في بعض الاحاديث فلتات تدلّ على همّ الرواة بسدّ هذه الثغر الواهية في حياة محمد الاولى ، كما تدلّ على موضعه من النسيان وعدم المبالاة قبل اظهار نبوّته . سأل يوماً عمر بن الخطّاب زائريه ، وقد ملأوا المجلس : « هل فيكم احد وقع اليه خبر من امر رسول الله (صلعم) في الجاهلية ، قبل ظهوره ؟ » [2] فلم يسمع جواباً الّا من أعرابي عمره ١٦٠ سنة [3] . ولعلّ هذا من الاسباب التي دفعت التقليد الاسلامي الى الاخذ بنوادر « المعمّرين » واخبارهم المستغربة [4] ، متّكلين على ذاكراتهم المتجاوزة حدود الشيخوخة المعقولة في سدّ الفراغ التاريخي الممتدّ من زمن « الفيل » الى « جيل التابعين » ، او خلفاء الصحابة . وفي هـذا العهد ، اي بعد وفاة النبي

---

١) راجع اسد الغابة ٥ : ٤٧٥ ، ٤٨٨ ، وفيه ذكر للجواري السود في مكة . وواحدة منهنّ كانت ماشطة خديجة ٥ : ٥٨٤ ، وقابل بما في ج : ٣٢٠ من الكتاب نفسه

٢) اسد الغابة ٣ : ٥٣

٣) كذا في اسد الغابة ٣ : ٥٣ . ونشير هنا الى ان رقم ١٦٠ كثير الورود في ذكر اعمار المحدثين . راجع الذهبي : ميزان الاعتدال ١ : ٨٠ ، ٣ : ١٠٧ ، ٢٥٤ . . . واحياناً يبلغ الرقم ١٨٠ سنة ، في الكتاب نفسه ١ : ١٠٦ ، ٣ : ٢٣٠

٤) *Chronologie de la Sira*, 214 . ومن المفيد ان نشير الى موقف الذهبي من هؤلاء المعمّرين ، وهو موقف شكّ وارتياب . راجع كتابه ميزان الاعتدال ١ : ٢٤٨ ، ٤٢٤ ؛ ٣ : ١٢٥ . . . وانتبه خاصّة لحكمه على من زعم ، وهو في آخر القرن الثاني للهجرة ، أنه «رأى عائشة ، رضي الله عنها ، بالبصرة على جمل اورق في هودج اخضر . . . » ذكر الذهبي هذا واردف : « قلت : انظر الى هذا الحيوان المتّهم كيف يقول ، في حدود سنة مائتين ، انه رأى عائشة . فمن الذي يصدّقه ؟ » (ميزان الاعتدال ٣ : ٣١٣)

بنحو خمسين سنة ، شعر المسلمون بضرورة كتابة سيرته . فجعلوا يذكرون معاصري أبرهة [1] ، وما يروون ، او ما يُروى عنهم .

وعلى هذا النحو ذكروا عن ابن اسحق « عن بعض اهل العلم » انه بينما كانت مرضعة محمد السعدية عائدةً به، بعد فطامه، من البادية الى مكة ، رآه معها « نفر من الحبشة نصارى . فنظروا اليه ، وسألوها عنه ، وقلّبوه . ثم قالوا لها : لتأخذنّ هذا الغلام فلنذهبنّ به الى ملكنا وبلدنا . فان هذا غلامٌ كائنٌ له شأن نحن نعرف امره . » ثم زاد ابن اسحق : « فزعم الذي حدّثني انها لم تكد تنفلت به منهم . » [2]

وليست هذه الحادثة بالصدفة الوحيدة التي نرى فيها الحبشان في مكة . فهناك جماعة من الوفود يبلغون العشرين من نصارى الحبش ، يأتون مكة في سبيل السلام على النبي واظهار عواطف احترامهم [3]. أوَ لم يكن محمد « رسول السودان والحُمران » [4] اي رسول الانسانية جمعاء ؟ وليس ما يمنع القول ان قافلةً من التجار الاكسوميّين رأت ، اثناء مرورها بالمدينة القرشيّة ، ان تشاهد هذا الداعي الى الاصلاح الديني ، في وقتٍ كان يُظهر فيه ميلًا جذّاباً الى الانجيل واهل الكتاب . وهكذا القول ، في ما بعد ، عن نصارى نجران ، ونصارى الحيرة ، ان جاز لنا ان نصدّق الاحاديث التقليدية .

كانت مكة قد اصبحت ، اذ ذاك ، اكبر سوق للرقيق في بلاد العرب الغربية . ولا يخفى ما في هذه التجارة من الارباح الطائلة . واذًا فلا عجب ان يكون كبار الرأسماليين من قريش ، ولا سيما آل مخزوم ، اخذوا بتنظيم القوافل والرحلات الى شواطئ افريقية ليستوردوا من الاريتره وجوارها ، ما

---

١) من الذين ذكروا أبرهة قيس بن الخطيم ، وجعله بانيًا في قوله :

فان تلحقْ بأبرهةَ اليافي ، وغسانٍ بوجّتها ، وعمرو

٢) ابن هشام : السيرة ١٠٧ . وفي طبقات ابن سعد ١ : ٧١ يتحوّل هؤلاء النصارى الحبش الى يهود

٣) ابن هشام : السيرة ٣٥٩

٤) راجع الاحاديث في هذا الشأن ، وكتابنا في معاوية *Mo'âwia I^er*, 427, n. 1

يقوم بالطلبات المتوالية عليهم . وهكذا كثر عدد السودان في مكة حتى اختارت منهم السلطة افضل فرق جيشها المعروفة « بالاحابيش » . وقد بيّنا ، في بحث سابق [١] ، قيمة اسمهم [٢] في الدلالة على جنسيتهم . واستغربنا كيف ان المستشرقين لم يشعروا بهذا الامر قبل اليوم [٣] . وقد كان في خدم الأسر المكية الكبيرة كثير من السودان [٤] يستعبدون خدمةً ومهنةً تُفرض عليهم « الضريبة » اليومية .

وقد ادخلت مجاميع الاحاديث بعضهم في خدمة النبي منهم شقران وابو لقيط وغيرهما من ذكور واناث [٥] . وان كان ما يُلام عليه ارباب هذه المجاميع قبالغاتهم الغريبة ؛ ومَن يصدّق بسهولة ان شقيق النجاشي نفسه كان من خَدَمة النبي ؟ [٦] ولا يخفى ان هذا الادّعاء كان له صداه — او انه كان صدىً لادّعاء آخر من نوعه — فسمعنا الشاعر الحيقطان ، في القرن الاول للهجرة ، يشير الى اسلام النجاشي نفسه [٧] ، فيصلّي عليه النبي [٨] . ورأينا العلويين يجعلون ابن النجاشي يُضحّي بالملك ، وما يجرّه من مجد وعظمة ، ليدخل

---

١) اطلب بحثنا في « الاحابيش والنظام العسكري في مكة زمن الهجرة » في « مشرق » السنة الثانية ١–٢٢ : ٣٧–٥٥٥ .

٢) اطلب ايضاً ابن بطوطة : رحلته ١ : ٢٧٨ وفيها ان حراسة جامع المدينة يقوم بها « فتيان من الاحابيش » ؛ وكذا في رحلة ابن جبير ١٩٤ .

٣) وهذا وهوسر Rossi, Sa يرى في الاحابيش حلفاء قريش البائسين !

٤) ابن هشام : السيرة ٣٦٧ ، وفيها ذكر لأَمَة حبشية في خدمة ام هاني . وهناك أمة نوبية في خدمة فاطمة : اسد الغابة ٥ : ٥٣٠ ، ٥٥٤ .

٥) اسد الغابة ٣ : ٣–٢ . ومن الاماء السود مرية النبي ، وأمة كانت تستقي بشرب بوله . راجع اسد الغابة ٥ : ٤٠٨ ، ٤٢٧ ، ٥٦٧ . اما ابو لقيط فكان إمّا حبشياً وإمّا نوبياً ؛ اسد الغابة ٥ : ٣٨٦ .

٦) اسد الغابة ٢ : ١٢٤ .

٧) الجاحظ : ثلاث رسائل ٦٠–٦١ .

٨) اسد الغابة ٥ : ٣١٣ – راجع ، في اسلام النجاشي ، البخاري : الصحيح (استانبول) ٢ : ٧١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ؛ ابن الاثير : النهاية ٤ : ١٦١ ؛ الثعالبي : السير ١ : ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ .

في خدمة علي [١] . . . ورأينا جميع المحدّثين يعملون على ان يجمعوا ، حول النبي ، اشهر سادات العرب واشدّهم أنفةً كالمغيرة بن شُعبة [٢] ، وابي موسى الاشعري ، ومعاوية بن ابي سفيان [٣] ، وكلّهم يتزاحمون ويتنافسون في خدمة النبي ، والقيام باحطّ حاجاته واحقرها ، حتى اذا تقدّمت بهم السنّ ، كان عليهم ان يتذكّروا كل ذلك فيحدّثوا الجيل النـاشيء بمظاهر حياة النبي الداخلية ، وقـد اصبح « اسوةً حسنة » للمؤمنين.

ومهما يكن من امر فان هذا الجمهور من الحبشان المقيمين في مكـة [٤] كانوا على تعلّق بدينهم النصراني ، بخلاف ما يظهر من بلال ، مؤذّن النبي ، واخيه مَن يكني عنه مؤرخو الإسلام بكنية « أبي رُوَيحة » ، ولا يخفى ما في هذه الكنية من دلالة بالنسبة الى رجلٍ اسود [٥] .

وليس من شكّ في ان هؤلاء الحبشان اثّروا في لغـة قُريش ، فزادوا في معجمها من مفرداتهم [٦] . حتى ان النبي وبعض صحابته كأبي هُرَيرة ، حفظوا عددًا من التعابير الحبشية الجارية [٧] ، ظهر شيء منها في تلك الصلوة التي قام بها محمّد على اثر وفاة النجاشي [٨] . هذا ما يظهر من اقوال جمّاع الاحاديث . وهم في ثرثرتهم المعتادة ، ورغبتهم الشديدة في الإكثار من المعلومـات ، لا يتزاجمون امام اظهار النبي مظهر العارف بمختلف اللغات ، يتكلّم بعضها ويحضّ عـلى درس البعض الآخر . يخاطب ابا هريرة ، المذكور آنفًا ، وهو عربي من

---

١) السهروردي : وفاء الوفاء ٢ : ٢٤٩

٢) النسائي : السُنن ١ : ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ؛ واطلب كتابنا في *Ziiad ibn Abihi*, p. 3

٣) ابن حنبل : المسند ٤ : ١٠١ ؛ الاغاني ١٦ : ٢٤ ؛ اسد الغابة ٥ : ٨ ؛ الترمذي : الصحيح (طبعة دهلي) ٢ : ٢١٢

٤) راجع الازرقي (طبعة Wüstenfeld) ٦٧

٥) اطلب مقالتنا في « الاحابيش » (المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ١١)

٦) Nöldeke, *Neue Beitr. zur semit. Sprachwiss.*, 31-66

٧) مسلم : الصحيح ٢ : ١٨٩ ؛ اسد الغابة ٥ : ٥٧٩

٨) البخاري : الصحيح (طبعة مصر) ٦ : ٢٥٤

دوس ، باللغة الفارسية [١] . ويأمر زيد بن ثابت بدرس السريانية في المدينة [٢] . ولا بدّ من الإشارة ، في هذا الموضوع ، الى عمل الشعوبية [٣] في وضع ما يوافقها من احاديث ، والى ما كانت ترمي اليه ، في جملة غاياتها ، من اقرار المساواة بين لغاتها الوطنية القومية واللغة العربية المتفوّقة شيئاً فشيئاً بفضل الاسلام [٤] . وقد كان من همّ شعوبية افريقية خاصّة ان يدلّوا على ان ذوي الالوان لم يكونوا متأخرين عن غيرهم في معرفة رسالة النبي العالمية ، وفي الدين بالإسلام.

ولهذا رأينا التقليد لا ينى في ذكر العلاقات التجارية المتعدّدة بين قريش وبلاد الحبشة . فيقول صفوان بن امية متذمّرًا في مكة : «... ونحن في دارنا هذه ما لنا بها بقاء . وانما نزلناها على التجارة الى الشام في الصيف ، وفي الشتاء الى ارض الحبشة...» [٥] على ان السيرة الآخذة خصوصاً بذكر مفاخر القرشيين ، تُهمل كثيرًا أن تشير الى الحركة الاقتصادية التي كان الاحباش يقومون بها في البلاد العربية . ونحن نعرف ان هؤلاء الافريقيين كانوا على اتصال تجاري بموانئ الهند ، فكيف امكنهم ان يصرفوا النظر عن اسواق الحجاز ، ولا يفصلهم عنها الّا ساعد من البحر ضيّق . ثم ان البضاعة التجارية تتبع عادةً ألوية الدولة الظافرة . وقد رأينا ، في حوليات مكة ، ان الملاحة

---

١) الطبري: تفسير ١ : ١٩٩

٢) ابن حنبل: المُسند ٥ : ١٨٣

٣) ومن الدلائل على هذه الاعمال ما رواه السيوطي في « موضوعاته » ١ : ٦ من ان الله اذا غضب ، أعلن شرائعه الصارمة باللغة العربية ؛ وانّا فانه يستعمل الفارسية . وهناك حديث معاكس في الكتاب نفسه ٢ : ١٥١

٤) ومن هذا القبيل قول بعض الاحاديث ان العربية لغة اهل الجنّة . ولكن « الذين يحملون العرش يتكلّمون بالفارسية » (الذهبي: ميزان الاعتدال ١ : ١٨٨) واطلب في الذهبي ٣ : ٢٢٠ دليلًا واضحًا على هذه النزعة الشعوبية ضدّ العرب . « قال موسى بن يسار : ان اصحاب رسول الله (صلعم) كانوا اعرابًا جفاةً ، فجئنا نحن ابناء فارس فلخّصنا هذا الدين »

٥) الواقدي (Kremer) ١٩٦

في البحر الاحمر بين شاطئ افريقيـة وموانئ الحجاز [1] كانت تحت سيطرة الحبشة [2]. فان هذه الاخبار لا تشير [3] ، في ذكر علاقاتها مع مملكة اكسوم ، الى مركب واحد عربي او تابع للعرب. انما هناك ذكر للمراكب الحبشية التي كانت تأتي فتفرغ مشحونها على شاطئ شُعَيبة ، قرب مكة . لان مرفأ جدّة لم يكن أنشئ بعد ، وهو متأخر عن زمن الهجرة [4].

بيد ان المرفأ الجديد ظلّ مدة طويلة ، بعد وفاة النبي ، ضئيل الحركة ، متوقف النموّ ، خوفاً من نزول الملّاحة الاحباش . حتى اخذ الراغبون في تقدّمه وازدهاره يضعون الاحاديث ينسبونها الى النبي في فضله ، وحسن موقعـه ، قـائلين : جدّة افضل ابواب الجنة المعروفة كالاسكندرية وعسقلان [5] . . . « وفضل جدّة على هؤلاء كفضل بيت الله على سائر البيوت . » [6] محاولين ، في ذلـك التضادّ المعجب بين جدّة والجنة ، دفع الناس الى السكنى في ذاك الشاطئ الفاسد المناخ ، اللاهب الحرارة .

* * *

واذا انصرفنا عن الشاطئ الحبشي ، نرى ان مكة كانت لهـا العلاقات

---

١) قابل بما في *Maricca*, 48, 52-53, 270, 279

٢) ابن سعد : الطبقات ١ : ١٣٦ ؛ وفي الصفحة ٩٢ ذكر لقائد مركب « رومي »

٣) الا مرّة واحدة ، ان صحّ ما يُستنتج من نصّ في اسد الغابة ٣ : ٢٤٥ . وقد ورد ، في عهد أيلة ، ذكر لملاحة « اهل الشام واهل اليمن واهل البحر » (ابن هشام : السيرة ٣-٩) يعني باهـل البحر ابناء الحبشة . راجع في اهمية الملاحة الحبشية : Lammens, *La Mecque à la veil e de l'hégire*, 287

٤) ابن سعد : الطبقات ١ : ٩٣ ، ١٢٦ ؛ ابن هشام : السيرة ٢٢٣ . وكان من المراكب ما يسافر رأساً من اليمن الى الحبشة ، اسد الغابة ٥ : ١٤٦ . راجع كتابنا : *La Mecque*.... 284, 288

٥) وهما مرضان لاحداث الاساطيل البيزنطية . وتسفلان مسائل ذكرها الذهبي في ميزان الاعتدال ٣ : ١٧٠ ، وقابل بما في ١ : ٢٨٥ ، ٣ : ٣٦٠ . وراجع في مجلة *Etudes*, 5 mars 1918 مقالنا : *Au pays des Philistins*, p. 546

٦) الذهبي : ميزان الاعتدال ٣ : ١٥٤ . وقد هاجم الاحبـاش الشاطئ العربي ، قرب مكة ، في حياة محمد ، ابن سعد : الطبقات ٢ : ١١٨

التجارية الزاهرة مع نجران وسائر الاوساط النصرانية في اليمن [١]. وهو ما يبرّر ذاك المحلّ الكبير الذي يحلّه النجرانيون في « السيرة » وفي تفسير القرآن [٢]. فعندما شاء المفسّرون ان يعيّنوا « اهل الكتاب » الظاهرين في حفلة « المباهلة »[٣] المعروفة ، فكّروا حالًا بالنجرانيين . ولم يكن وجودهم في مكة ، على ما يظهر ، من الحوادث النادرة . وقد يعود لهم نقل تلك الاقمشة المنسوجة في مدينتهم الصناعية [٤] ، ونشرها بين القرشيين حتى اخذوا يستخدمونها في ستر الكعبة ، وتغطية حجارتهم المؤلهة [٥] . ثم اننا نرى القرشيين المشركين يتركون مكة ، بعد الفتح ، ويلجأون الى نجران [٦] . واذًا فانهم كانوا على معرفة بطريقها ، وعلى امل بوجود الملجأ والعطف بين سكّانها .

وكما كان يذهب القرشيون الى نجران ، كان يأتي « نصارى من اهل نجران » الى مكة ، كأولئك الذين جاؤوا ليناقشوا النبي ، كما تقول « السيرة »[٧] ، مستوحيةً خبَرها ، على الراجح ، من « اسباب النزول » . واسباب النزول مجموعة تفاسير وشروح حافلة بالاخبار والحوادث والنوادر ، يرمي فيها المفسّرون الى شرح الآيات ووضعها في محيط تاريخي وجغرافي يسهّل فهمها ، وادراك اسباب « الوحي » بها . وقد لا نخطئ المقصد اذا قلنا ان هؤلاء الزوّار ، او الوفود ، كانوا من ممثلي التجارة في تلك الجمهورية النصرانية العاملة[٨] ، وان وجودهم في مكة كان يوافق انعقاد الاسواق السنوية المهمة في عكاظ ، وذي المجاز . وقد ذكر من

---

١) راجع كتابنا *Yaqūt*, 329

٢) راجع *Fāṭima*, 70, 76, 97

٣) القرآن ٣ [آل عمران] ٥٤ ، راجع *Yaqūt*, 3:14

٤) *Fāṭima*, loc. cit.

٥) وهو ما يشير اليه قيس بن الخطيم في ديوانه ٥ : ١٤ :

واللهِ ذي المسجد الحرام ، وما بُجِّلَ من بَدْنةٍ لها حُنُفُ

٦) اسد الغابة ٣ : ١٥٩ - ١٦٠ . ويذكر الجاحظ (كتاب الحيوان ٣ : ٢٧) ثلاثة ابيات لاسقف نجران ، ولا يسمّيه .

٧) ابن هشام : السيرة ٣٥٩

٨) اسد الغابة ٤ : ٢٥٦ ، وفيه ان اسقف نجران زار محمدًا في مكة .

هؤلاء النجرانيين النصارى رجلٌ تحدّث الى النبي اسمه عبدة بن مُسهر . فأسرع جمّاع الاخبار الخاصّة بالصحابة الى تدوين هذا الاسم ، وهم لا يغفلون طرفة عين عن كلّ ما يوسّع معلوماتهم ويضخّم ترجمات من يُعتَون بهم من الصحابة سواء أثبت وجودهم أم لا[1] .

ولما سُئل عبدة عن موطنه قال انه «كعبة نجران»[2] ، وهو اسم الكنيسة المهمة في مدينته ، تلك الكنيسة المشهورة في بلاد العرب كلّها . ولا يخفى ان تلك الاسواق كانت تُقام ، على الغالب ، مدة الشهرين السابقين لموسم الحجّ . فكان يقصدها كثير من البدو ، وعدد من التجّار يأتونها من انحاء الجزيرة جميعها . ولم يكن من النادر ان يكون بينهم عدد من تجّار الحيرة النصارى ، والحيرة من امّ الاسواق في وادي الفرات الاسفل ، يقدمون الى عكاظ مع القافلة الرسمية التي كان يرسلها ، كل سنة ، ملك فارس ، وسيّد امرائهم اللخميّين. وآخر تلك الاسواق التهاميّة في التاريخ كانت سوق ذي المجاز التي كان يمتدّ زمن انعقادها حتى قبيل موسم الحج . وموقعها قريب من مِنى ، ومِنى من أرضِ الحرم ، كما لا يخفى. فكان كثير من التجار والحجّاج ، وسائر حاضري السوق ، لا يعودون قبل ان يمرّوا في مكة فيزوروا مصارفها ، ومخازنها ، وحوانيتها . ويحدّثنا الحديث ان وفدًا من نصارى الحيرة ارسله اسقفه

---

١) وهم في ذلك لا يعملون شيئًا ، بل لا يتراجعون امام بعض الاساليب البعيدة عن النقد التاريخي كتضعيف عدد بعض الصحابة وتثليث احيانًا . راجع ما قلناه عن ذلك في بحثنا : «الاحابيش» في مشرق الحجاز قبل الهجرة ص١١ ، الحاشية ١ . ولنلفت خاصّة الى الصحابة المزدوجة اسماؤهم حتى وُلِد من كل واحد رجلان في اسد الغابة ٤ : ٥١، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١٢٩، ١٤٢، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٦٧ . . . وهناك صحابة اصبح كل منهم ثلاثة رجال ، في اسد الغابة ٤ : ٨٥ ، ١٨١ ، ١٩٣ ؛ ٥ : ٢١٩ ، ٢٩٤–٢٩٥ ، ٤٣٠ ، ٥٥٣ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ؛ بل اربعة رجال ، في اسد الغابة ٤ : ١٧٠–١٧١

٢) اسد الغابة ٣ : ٢٢٧ . وهناك ذكر «لكعبة الطائف» ، راجع Goldziher, *Zahiriten*, 132, n. 2 ، وقد دُعي ذو الخَلَصَة «كعبة اليمن» ، راجع *Yaqût*, 340 ، والبخاري : الصحيح (طبعة استانبول) ٧ : ١٥٣ . اما قيمة هذه التسمية «بالكعبة» وما معناها ، ان لم تكن قالبًا متداولًا لا قيمة مهمّة له .

ليسأل عن عقيدة محمد وبعثته[1]. ومهما يكن من أمر ، فان لنا الحقّ ، بعد ان عرضنا كل ما تقدّم من المعلومات ، ان نفرض للنصارى في مكة مروراً متواصلاً ان لم نقل اقامةً موقّتة.

***

ولم يكن الاحباش وحدهم يمثلون العبد المقيمين في مكة ، وان كانوا يؤلّفون اكثريتهم الساحقة . ويظهر ان النبي كان على اتصال ببعضهم بدليل ما زعم مخاصموه ومناقشوه من انّه كان يختلف « بكرةً واصيلاً » الى رجال اجانب لسانهم « اعجمي » ، فيعلّمونه « اساطير الأولين » يدوّنها في قرآنه . وهذا قول القرآن في هذا الشأن نورده بنصّه :

قال في سورة النحل ١٠٥ : « ولقد نعلم انهم يقولون : « انما يُعلّمه بشرٌ لسانُ الذي يُلحدون اليه أعجميّ ، وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين ».

وجاء في سورة الفرقان ٥و٦ : « وقال الذين كفروا : إنْ هذا الّا افكٌ افتراه واعانه عليه قومٌ آخرون ، فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا : اساطير الأوّلين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرةً واصيلاً. »

ونقل ابن هشام في السيرة شارحاً « سبب نزول » الآية : « وكان رسول الله (صلعم) ، فيما بلغني ، كثيراً ما يجلس عند المروة الى مَبيعَة غلام نصراني يقال له جَبر ، عبد لبني الحضرمي . وكانوا يقولون : والله ما يعلّم محمداً كثيراً مما يأتي به الّا جَبرٌ النصراني ، غلام بني الحضرمي . فانزل الله عزّ وجلّ في ذلك من قولهم : ولقد نعلم . . . »[2]

من هؤلاء الاجانب ، ذوي اللسان الاعجمي ، تذكر « اسباب النزول »

---

١) هذا ما يقوله الحديث زاعماً ان الاسقف المذكور كان متنوّجاً ! اسد الغابة ٤ : ٢٤٤ . بيد اننا نرى ان هذا الخبر في مكة ، كان يتعلق بمحمد وحركته ، لا بالقول من نصارى الجزيرة ؟

٢) راجع ابن هشام : السيرة ٢٦٠ . ويرى كايتاني (*Annali*, I, 235) في ذلك ، تأثير زيد بن حارثة ، وهو مولى من كلب ، واداً من المتنصّرين ، تبنّاه محمد . وهذا التأثير يدلّ عليه نصيب الوافر من اخبار السيرة ، راجع *Fatima*, 24, 40

موالي او عبيدًا من عين التمر ، في ما بين النهرين[1] . ومنهم واحد كان من موالي مخزوم ، كما يقول بعض جُمّاع الاحاديث[2] . وليس في الوصول الى هذا التدقيق كبير عناء.. بل كان يكفي اولئك المحدّثين ان يتذكروا كم كان لآل مخزوم من عبيد وموالٍ يستخدمونهم في مرافقهم الاقتصادية المتعدّدة.

وان لنا في اخبار حياة النبي الخاصّة ذكرًا لعددٍ من العبيد المصريّين : ذكور واناث ، كانوا يعيشون في مدن الحجاز. رافق عدد منهم ماريّة الجميلة ، جارية النبي[3] . وهي قبطيـة الأصل امتلكها اولًا عبّاس ، ثم اعطـاها نسيبه محمدًا[4] . ويذكر صاحب اسد الغابة ، في حرم عبّاس ، جارية اخرى ، يونانية الاصل[5] . وهناك مولاة اسمها ماريّة ــ واذًا فهي يهودية او نصرانية[6] ــ تذكر انها رأت زيد بن عمرو « الحنيف » المشهور[7] . ومن موالي صفوان بن امية السيّد القرشي المعروف، رجل اسمه نسطاس ، او انستاس ، ولا شك في نصرانيته بدليل اسمه[8] . وكذلك نـذكر من النصارى المدعو مينـا او ميناس ، وهو رجل « غير منسوب » ــ اي لا يلتحق باحدى القبائل العربية ــ صادف محمدًا

---

١) الواحدي : اسباب النزول ٢١٢

٢) اسد الغابة ٣ : ١٢١ . وفيه ذكر جارية يونانية من موالي بني مخزوم ٥ : ٤٦٢، ثم ذكر جارية يونانية اخرى ٥ : ١٩٤ .

٣) اسد الغابة ٦ : ٣٦٨ . ونجد ذكرًا لبيرها من الجواري والعبيد القبط في المدينة ، اسد الغابة ٥ : ١٢٨ ؛ ٦ : ٢٤٢ . ويذكر الذهبي (٣ : ١٢٤) مولى اسمه نادوس (فهو قبطي اذًا) من موالي حزام بن حكيم المكّي.

٤) اسد الغابة ١ : ١٧

٥) اسد الغابة ١ : ٣١٢ ، ٦ : ٢٢٢

٦) وقـد تقدّم لنا القول ان العرب الجاهليين لم يألفوا استعمال الاسماء المعروفة في الكتاب المقدّس . ولهذا وجب ان يكون ابو حنا المدني المذكور في ابن سعد : الطبقات ٣ : ٤٥ – ٤٦ ، يهوديّ الاصل . وفي الكتاب نفسه ٣ : ٢٥٤، ٢١ ذكر لامرأة مدنية اسمها ساره. وفي ١ : ٤٢ أن احدى بنات عبد مناف اسمها حنّة . ومن المفيد ان يراجع بشأن اسم « حنّا » J. Horovitz, *Koran. Untersuch.*, 158

٧) اسد الغابة ٥ : ٢٨٧

٨) الاغاني ٦ : ٤٢ ؛ ابن هشام : السيرة ٦٤٠ ؛ اسد الغابة ٣ : ٢٣٠ ؛ الواقدي ٣٥٢

قرب الحِجْر . ونذكر يوحنّا ، عبد صُهَيب[1] . وصهيب نفسه لم يكن عربياً بل كان سوريّ الأصل . ومن النصارى الاجانب نسطور الرومي ، وابنه جعفر الذي كان يفتخر بانه تناول سوط الرسول ، وقد وقع على الأرض في احدى الرحلات . فكافأه النبي بان سأل الله ان يطيل حياته . ويزيد جعفر : فعشت ثلثمائة وعشرين سنة بعد الرسول . كذا ، ويضيف الذهبي المعروف باعتداله : « هو أسقط من ان يُشتغل بكذبه ! »[2] . ثم ينعته بانه « طير غريب متهم بالكذب »[3] ؛ بل انه ينفي وجوده ، في مكان آخر[4] ، وهذا اقرب الى المعقول .

ويجب ان نذكر من النصارى المقيمين في مكة ، في هذه الحقبة ، فُرات ابن حَيّان[5] ، اشهر مَن يُذكر من الادلاّء ، وقادة القوافل في المجاهل الصحراوية . كان فرات من بني عجل البكريين الذين ظلّوا نصارى مدةً طويلة بعد الهجرة[6] . وكان حليفاً لآل سهم من القرشيين . ومن نصارى مكة صُهيب بن سنان المشار اليه آنفاً والمعروف « بالرومي » لأنه كان اصله من المقاطعات السورية - العراقية التابعة امبراطورية الروم او بيزنطية[7] . كان من اصدقاء محمد المخلصين ، ولعله كان من عملائه ، عهدَ كان النبي يشتغل بالتجارة ونقل البضائع . والمعروف عن

---

١) اسد الغابة ٣ : ٣٣ ؛ ٤ : ٤٢٧ السهودي : وفاء الوفاء ١ : ٣٨٠ ؛ الذهبي : ميزان الاعتدال ٣ : ٢٢٥ – ولنضف الى ما تقدم ذكر امرأة فارسية مقيمة في مكة (اسد الغابة ٥ : ٤٠٢) . وعول يوناني تزوّج سُمَيّة ، ام الصحابي عمّار (اسد الغابة ٥ : ٤٨١) . وفي السهودي ١ : ٨٢ ، نبوّة لمحمد تشير الى تكاثر العبيد من يونان وفرس .

٢) الذهبي : ميزان الاعتدال ١ : ١٩٤

٣) الذهبي : الكتاب المذكور ١ : ٢٠١

٤) الذهبي : الكتاب المذكور ٣ : ٢٢٠ – وقد تقدّم لنا ما يدلّ على دقة النظر في احكام هذا الناقد البصير .

٥) ابن سعد : الطبقات ٢ : ٧ . ويزعم ابو داود ، في السُنَن ١ : ٢٦٢ ، انه كان حليفاً للانصار (كذا !) في الطبقات ٢ : ٧ – ٨ انه جُرح في بدر .

٦) راجع *Mo'āwia*, 436

٧) اسد الغابة ٣ : ٢٠ – ٢١ . وفي البلاذري (الانساب ١١٠ قفا) انه دعي « الرومي » لأنه كان احمر شديد الاحمرار .

صُهيب انه بدأ شريكاً لابن جُدعان المثري الكبير ، ثم انفرد عنه ، واصبح من ذوي الثروات المعتبرة في مكة ، بل المحسودة . يدلّ على ذلك ما هدّده به القرشيون حين اراد الالتحاق بالنبي الى المدينة ، بعد الهجرة ، فقالوا : « أتيتنا صعلوكاً حقيرًا ، فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت. ثم تريد ان تخرج بمالك ونفسك. والله لا يكون ذلك. »[1]

ولايخفى ان النبي كان ، في اول عهده ، يدبّر اموال امرأته خديجة ، فكان عليه ان يتردّد الى الاسواق والمعارض. فلما اظهر بعثته ، ظلّ على تلك العادة[2] ، لعلّه يجد في المجتمعات من يؤمن بدعوته. هكذا كان شأن قس النصارى ورهبانهم في زياراتهم مجتمعات البدو ؛ وهكذا كان شأن قس بن ساعدة « اسقف نجران » الذي كان يأتي سوق عكاظ ، على ما تقول الاسطورة ، فيعظ القوم[3]. حتى ان النبي يذكر انه سمع احدى مواعظه. كما انه يذكر راهباً « يعالج الاعين » عالج عينيه ، في صغره ، وشفاه[4]. اما اسم الراهب فسيع. واما طريقة معالجته فكانت بان وضع على عيني الصغير قليلاً من تراب جبل سينا[5] . ولا شك في وجود المداوين والدجّالين[6] في عكاظ وغيرها من الاسواق العربية .

اما هذه الاحاديث النبوية فغايتها ان تبرّر الالتجاء الى طبيب من غير

---

١) ابن هشام: السيرة ٢٢١

٢) وقد اشار خصومه الى هذا فقالوا: « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشي في الاسواق . . . »(القرآن ٢٥ [الفرقان] ٨) ؛ وراجع الذهبي : ميزان الاعتدال ٢ : ١٠٥ ؛ *Fāṭima*, 95

٣) الاغاني ١٤ : ٤١ – ٤٣ ؛ الاب لويس شيخو : شعراء النصرانية ٢١١ – ٢١٨ ؛ السيوطي: الاحاديث الموضوعة ٩٥ – ١٠٠

٤) ابن الجوزي: وفاء (مخطوطة ليدن) ص ٢١ قفا. وهناك ذكر لكاهن آخر يعالج الأعين ، الاغاني ١١ : ٤٢ ؛ السيرة الحلبية ١ : ١٢١

٥) مجموعة (مخطوطة برلين رقم ٩٦٣٢)

٦) الجاحظ : كتاب الحيوان ٤ : ١١٩ . ويذكر ابن حنبل (المسند ٤ : ٤٠) طبيباً متنقلاً يعرض على محمد ان يُعالج عائشة ويشفيها .

المسلمين[1] ؛ مستندةً الى ما عرف عن النبي من ميل واضح الى الرهبان[2] . ونحن نرى انها موضوعة ، في اكثرها ، ان لم نقل في كلها ، عصر كان كبار الاطباء جميعهم من النصارى واليهود. من ذلك ان مجاميع «الصحيح» تفيدنا ان النبي عهد في معالجة سعد بن ابي وقّاص ، من جماعة « البُشَرة » الى رجل غير مؤمن هو الحرث بن كَلَدَة الثقفي ، « طبيب العرب » على الاطلاق .

واعجب من كل ذلك ، اذا صحّ ، وجود ناسك عموديّ في مكة في هذه الحقبة[3] . وقد وددنا لو ثبت له شيء من الحطب[4] — فضلًا عن ثبوت وجوده — فنرى هل من شبه بين خطابته وخطابة شفيع العموديين جميعاً ، سمعان الكبير ، الذي كان يلتهب غيرة وحماسة ، ويندفع من فوق عموده ، في مقاطعة انطاكية ، واعظاً موثّباً جموع البدو المحتشدين حول مقامه الرفيع.

ومهما يكن من أمر فان الديورة والمناسك النصرانية لم تكن قليلة في بلاد العرب الغربية ، ولا سيما شمالي الحجاز ، على طول الطريق التجارية الآخذة نحو سورية[5] ، المحاذية لخطّ الحدود الرومانية ؛ وفي واحات وادي القرى ، ومَدْيَن[6] وتَبوك. وهذه الواحة الاخيرة كانت مركزًا لحامية من رجال الغسانة ظلّت في خدمة البيزنطيين ، حتى بعد معركة مُوتة[7] . وفي السيرة الحلبية[8] ذكر لراهب

---

١) راجع الاغاني ١٤ : ١٢٣

٢) راجع القرآن ٣ [آل عمران] ٦٠ ، ٥ [المائدة] ٨٥ — والاطباء كلهم من النصارى او اليهود ؛ اطلب *Mo'tamia*, 9 ; Caetani, *Annali*, année 11, p. 27, n. 1 ؛ اجحظ : البخلاء ٢٠٩ . وهناك رهبان يعالجون الكلب ، المقدسي ١٤٦

٣) المفضّل : الفاخر (طبعة Storey) ٢٣٥ — ٢٣٦ . ولا يخفى اعجاب البدو هذا النوع من النسك النصراني .

٤) وفي الفاخر امثلة من هذه الخطب ، ولكنها تظهر مصنوعة على مثال السجع القرآني .

٥) اطلب في ذلك بحثنا : *L'ancienne frontière entre la Syrie et le Hijâz*, dans : *Bulet. de l'Inst. fr. d'archéol. orientale*, XIV, 95

٦) راجع *Berceau*, I, 189 — 190 ؛ تفسير الطبري ٧ : ٤

٧) اطلب *Ancienne frontière*, 86 ؛ اسد الغابة ٥ : ١٦٦

٨) السيرة الحلبية ١ : ٧٥

كان في مرّ الظهران ، اي في منطقة مكة. ونحن نعرف ان رجال الاكليروس بين نصارى العرب كانوا كلّهم من الرهبان[1]. وذلك ان الرهبان ، وقد تعوّدوا شظف الحياة التقشفية ، كانوا وحدهم يقوون على ذلك الجهاد المتواصل بادا. واجباتهم في مناطق الصحرا..

***

ولا ننسَ تجّار الشام ورحلتهم الى الحجاز ، ناقلين الحبوب ، والزيوت ، والخمور الى المجتمع القرشي[2] المقيم في « وادٍ غير ذي زرع »[3]. وهؤلاء اهل يثرب انفسهم ، على خصب واحتهم وصلاحها لزرع الشعير[4] ، كانوا يستوردون قمحهم من الشمال: من البلقا. ومن حوران[5]. بيد ان التجارة المحلية في المدينة كان يحتكرها اليهود ، وهم أبعد همّة ، واقوى جلدًا ، واكثر مالًا من وطنيّيهم الانصار المخلدين الى الراحة وعدم المبالاة . اما نقل القمح الى مكة ، وهي سوق اوسع مجالًا وابعد شهرة من سوق المدينة ، فكان يستقلّ به « الانباط »، اي سكان سورية الاصليون . وكانوا في اكثريتهم من النصارى . وقد كان لهم مستودعات ومخازن تصلح حوانيت للبيع احيانًا ؛ وقد تصلح،ايضًا، لاقامة الاحتفالات الدينية ، كنائس ومعابد . وقد ذكرت لنا كتب الحديث وصول شأس الى مكة ، شأس اجنبي ، دون شك ، لأن جماله الغريب ترك اثرًا بعيدًا في

---

١) راجع Wetzst. 340 ؛ الاغاني ١٦ : ٤٦ ؛ اسد الغابة ٣ : ٦٣ . وفي الدماني : السفر ١ : ١١٤ ، ذكر راهب عربيّ من طيّ يقوم بمهمّة اخروي . ويذكر الهمداني : صفة جزيرة العرب ٥٣ ، بعض الرهبان في جزيرة سوقطرة .

٢) من هؤلاء التجار تميم الداري ، الشامي الأصل ، الذي كان يبيع الزيت والمصابيح ؛ راجع اسد الغابة ٥ : ١٤٥ ، والازرقي ٢٧٥ . ومنهم كيسان الصحابي مانع المشور ، الدمشقي الأصل ؛ اطلب اسد الغابة ٤ : ٢٥٦

٣) القرآن ١٤ : ٤٠

٤) اسد الغابة ٢ : ١٨٦

٥) ابن هشام : السيرة ٩١١ . ويظهر مما ينقل الذهبي : ميزان الاعتدال ٣ : ٢٤٤ ان خبز القمح كان نادرًا في المدينة على عهد الرسول .

سكان العاصمة القرشية[١] حتى ان اصحاب المجاميع دوّنوه معجبين[٢] . اما اسم «شمّاس» فكثيرًا ما دلّ في الاحاديث القديمة ، على الكاهن المسيحي[٣] . وتميّز هذه الاحاديث ، على ما دخلها من الغريب ، بين هؤلاء الشامسة ، والرهبان « اصحاب الصوامع»[٤] . على ان بعض دارسي الاحاديث، حتى من علماء عصرنا، لم ينتبهوا الانتباه الكافي لهذا التمييز ، فرأينا سپرنگر يحوّل عدّاس ــ ذاك العبد النصراني ، مولى عُتبة بن ربيعة الأموي ، الذي استقبل النبي في الطائف ــ الى « راهب من نينوى »[٥] ، مأخوذًا ، بما ورد في « السيرة الحلبية »[٦] ، وقد صوّره صاحبها راهبًا شيخًا تلجأ اليه خديجة فتستفتيه في بعض الشؤون . اما الراجح في كل هذا فهو ان عدّاسًا كان من بين النهرين . ولا نعلم ما جرى له حتى بيع عبدًا في بلاد العرب. بيد ان كتب الحديث تتفق عليه « الترضية » ، وتدوّن اسمه بين اسماء الصحابة[٧] ؛ زاعمةً انه « حوّط بحجارة » كل مسجد وكلّ مصلًى صلّى فيه النبي في جبل سراة[٨] ، معوّضًا بذلك عن اعراض اهل الطائف عن القيام بهذا الواجب التقوي.

ثم هناك طبقة اخرى في المجتمع العربي يظهر الحديث بها اهتمامًا جديًا ، هي

---

١) ابن هشام : السيرة ٤٨٩ ، وقابل بما في الصفحة ٣٤٩ ؛ اسد الغابة ٣ : ٢٧٥

٢) اسد الغابة ٤ : ١٤٨ ؛ وراجع Yaʿqūbī, 58

٣) قابل بما ورد عن ابي بكر في وصيته ليزيد : سترى رجالًا « قد فحصوا رؤوسهم فهم الشامة قد حافوا رؤوسهم . » ؛ ابو عُبَيد : غريب الحديث (مخطوطة كوپرولو) ٢١٣ وجه . وهناك ذكر لاسقف يخلع ثوبه الاسود ويلبس ثيابًا بيضًا لإقامة الرتبة ؛ اسد الغابة ٣ : ٤١

٤) « اصحاب الصوامع فانه يعني الرهبان » (ابو عبيد : الكتاب المذكور) . وراجع في حلق الرأس عند الرهبان ، ابن الأثير : النهاية ١ : ٣٧١

٥) Sprenger, *Life of Mohammed*, Allahabad, 1851, p. 99 . وراجع : المسعودي وفاء ٣ : ١٨٦ ، وهو يسمّيه « عدبس » (؟)

٦) السيرة الحلبية ١ : ٢٦٠

٧) واذًا فلا بدّ من ان يكون ادرك الفتح . اما الواقدي (ص ٢٨، ٢٩) فيزعم انه قُتل في بدر . ولا يبدّه مطهّر المقدسي (طبعة Huart ٥ : ١٢٢) بين المسلمين . راجع المُجيري : اخبار الطائف (مخطوطة المكتبة الملكية بالقاهرة) ص ١١ وجه

٨) اسد الغابة ٣ : ٢٨٩ — ٢٩٠

طبقة « الكهّان ». وما ذاك الّا لأنّهم يمثلون دورًا مهمًّا في « دلائل النبوّة » اي في مجموعة المظاهر والآيات التي تدلّ ، في نظرهم ، على ظهور محمد . وعلى هذا السبيل يذكر الحديث الكاهن النصراني مأمون بن معاوية ، وهو من اشهر الاختصاصيين بفنّه وباستخراج دلائل الزجر والعرافة . كان له طائر[1] خاص يزوره في اوقات متناسبة فيوليه من الوحي ما يمكّنه من معرفة الغيب وفهم حوادث المستقبل . وفي احدى هذه الزيارات ، وكانت يوم جمعة ، اعلن الطائر للكاهن ان نجيء محمد صار قريباً . بيد أنّ من نقص التدقيق في هذه الاسطورة[2] المنسوبة الى صحابي مخترَع من اولئك المعمّرين البالغين ١٦٠ سنة ، ان الراوي يُهمل ذكر مقام العرّاف النصراني هل كان في مكة ام في غيرها من قرى تهامة[3] .

ومهما يكن من آراء النقد في هذه الاساطير الموضوعة ، والتي نرى فيها كثيرًا من رجال الدين المسيحي ، فليس لنا ما يجيز الزعم بانه كان في مكة نظام مرتب للاكليروس النصراني[4] .

ولا يجرح هذا القول ما نراه عَرَضاً من ذكر لبعض الاساقفة يميل الى الاساطير اكثر منه الى الحقيقة التاريخية . كما جاء في اخبار الفيومي من ان عبد المطّلب ، جدّ محمد ، تحدّث الى اسقف ، في فناء الكعبة . ويزيد المؤلّف شارحاً لفظة اسقف : اي رئيس النصارى . وكان من نتائج هذا الحديث ان الاسقف اخذ

---

١) هو « التابع » او الروح الخاصّ بالكاهن يلهمه بما يقول . ولا يندر ان يتخذ هيئة الطيور . راجع ابن سعد : الطبقات ١ : ١١٠ ، ١٢٦

٢) قابل بما يروى عن الكاهن النصراني سطيح في ابن هشام : السيرة ٩ ، ٢٨ ، ٤٥ ، ٤٧

٣) اسد الغابة ٣ : ٥٢

٤) ارجع الى شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ١ : ١١٧ ، ويجب ان يُقرأ نصّ الاغاني (١٣ : ١٠٩) « لا سقفَ عليه » بدل : « لا سُقُفَ عليه . » وكذلك ان ابا قيس صُرمة المذكور هناك (ص ١٣٠) كان انصارياً لا قرشياً (راجع *Chronologie de la Sira*, 228–231) من الحقّ ان « التقويم » النسطوري يعيّن مركز اسقفية في المدينة وفي عكاظ ، ولكنه لا يقول شيئًا بشأن مكة . على ان هذا « التقويم » نفسه مزور ، يرقى الى عصر قريب منا كل القرب . راجع *Tāif*, p. 86

يفصل جدّ النبي حياة حفيده المقبلة مرحلةً مرحلةً[١] . ولا نزعجنّ بالنا بالسؤال عن ايّ اسقف هذا ، ولا الى ايّ كنيسة من بلاد العرب كان ينتمي . والّا فاننا نولي مخيّلات ارباب « السيرة » اهمية وانتباهاً هي جد بعيدة عن ان تستحقّها . وليس من غاية في درس هذا الاسقف الجديد في حوادث طفولية محمد الّا ما عرفناه، في ادخال زملائه اساقفة نجران والحيرة، من العمل على اظهار انحاء الجزيرة باجمعها متأثرةً بظهور نبيّها العربي الوطني . واقلّ من هذا الاهتمام ما يجب ان نوليه لقب « القسّ » الذي أُلصق باسم ورقة بن نوفل[٢] ، فلا نحفل كثيرًا بمعنى هذه الكلمة ، ولا نعمل على استنتاج المهمّ منها . وكذلك نقول عن لفظة « راهب »[٣] في لقب ابي عامر المدني ، والد حنظلة ، شهيد أُحد ، و« غسيل الملائكة » .

وكان التجّار المقيمون في مكة ، ان لم يكونوا « حلفاء »[٤] لبعض الأُسر القرشية ، يُفرض عليهم ان يدفعوا ضريبةً تقابل ما يولَون من حقّ بالاقامة وبالتجارة . يدلّ على ذلك نصّ في كتاب « الخراج » ليحيى بن آدم يظهر منه ان النبي فرض ضريبة سنوية على احد هؤلاء . وهذا هو النصّ : « ضرب رسول الله (صلعم) على نصراني بمكة دينارًا كل سنة »[٥] ، ولا عجب فان محمدًا، عندما فتح مكة ، واستتبّت له السلطة فيها ، لم يتراجع امام اتخاذ ما كان فيها من اساليب تجارية ومالية اقرّها العرف والاستعمال . وفوق ذلك ، فان هذا الخبر

---

١) النيومي : الاخبار (مخطوطة عاشر افندي ، استانبول) ص٥ وجه ؛ للسيرة الحلبية ١ : ١١٨

٢) راجع البلاذري : الانساب ٦٤

٣) ترهّب ، تألّه ، تحنّف ، تحنّث ، افعال تدلّ على مختلف مظاهر الزهد عند قدماء العرب . راجع اسد الغابة ٥ : ٢٠٠ وفيه تُطلق لفظة راهب على احد اشخاص العهد العتيق . بل انما تُطلق على احد المشركين المقيمين في مكة ، فيُدعى « ابا صيفي الراهب » (اسد الغابة ٥ : ٤٧٥)

٤) كان من واجب الحلفاء ان يشاطروا القبيلة في تقلّباتها العامة ، كدفع دية القتل ، وفدية الأسرى

٥) كتاب الخراج ٥٣ ؛ راجع ايضاً ابن سعد : الطبقات ١ : ٢٦

كان من شأنه ان يبرّر موقف الخلفاء المالي من الذمّيين[1] . ولهذا اهتمّوا به ودوّنوه في نصوصهم الاقتصادية . على ان هذه الضريبة كانت تختلف روحاً ومبدأً عما قام بعد ذلك في الشرع الاسلامي. وذلك ان الضريبة القرشية القديمة كانت تُفرض على التاجر الاجنبي، لا لأنه يهودي او نصراني ، بل لانه اجنبي عن بلاد العرب. فان الصفة النصرانية لم تكن تمنع العرب ان يحبوا النصارى ، على ما قال ابو الطمحان الأسدي :

واني ، وان كانوا نصارى ، أُحبّهم ويرتاح قلبي نحوهم ، ويتوق ! [2]

---

١) نشير هنا الى الخراج او الجزية ، ومبدأها يختلف عما تقدّم.

٢) الجاحظ : كتاب الحيوان ٥ : ٥٣

(للبحث صلة)